

الدكتور أبو مدين الشافعي رائد علماء النفس الجزائريين المعاصرين

أ. جمال زواري أحمد . جامعة الوادي . الجزائر
zouaridj70@gmail.com

ملخص:

الدكتور أبو مدين الشافعي رائد من رواد علم النفس في الجزائر والعالم العربي في العصر الحديث، باعتباره من أوائل الجزائريين الذين حصلوا على شهادة الدكتوراه في هذا التخصص والتي ناقشها في القاهرة سنة 1947، بعد رحلة شاقة قادته من تلمسان إلى مصر عن طريق المغرب وإيطاليا، وعمره حينها لم يتجاوز السابعة عشر، بهدف إتمام دراسته التي حرمه منها الاستعمار، وقد استطاع أن ينهيها بتفوق، ويعين أستاذا لعلم النفس في الجامعة المصرية، ويفتح عيادته الخاصة للعلاج النفسي، والتي اغتيل فيها من طرف أحد اليهود المصريين سنة 1958، بعد أن ساهم في خدمة قضية وطنه المحتل حينها، وأثرى المكتبة العربية بعدد معتبر من البحوث والمقالات والمؤلفات العلمية المتخصصة، مازال الكثير منها يدرس في جامعات مصر والعراق والشام وغيرها إلى اليوم.

الكلمات المفتاحية: أبو مدين الشافعي . علم النفس . الجزائر

Dr. Abou Madian al-Shafi'i a modern Algerian pioneer psychologist

Abstract

Dr. Abou Madian al-Shafi'i was one of the high profile Algerian pioneer psychologists in the modern history. He was one of the first Algerian students who got the PhD in psychology in Cairo in 1947. He got his PhD after a long and exhausting journey from Tlmeccen (Algeria), Morocco, Italy and to Egypt. He made this journey, to make his successful graduation, in the age of seventeen when the French colonization wouldn't have let him do so in Algeria. After getting his PhD, he was appointed a teacher of psychology in the Egyptian university, and then he opened his clinic where he was killed by an Egyptian Jewish in 1958.

Dr. Abou Madian contributed a lot in serving the Algerian situation. He left a valuable legacy of many researches, articles and science books which many of are considered teaching sources in the Egyptian, Iraqi and Shami universities.

Key words: Abou Madian Shafi'i – psychology – Algeria

مقدمة:

رغم الظروف الصعبة التي كانت تعيشها الجزائر في الفترة الاستعمارية، وحالة التضيق التي كان يمارسها الاحتلال على مجال التعليم والثقافة على وجه الخصوص، وحرمان أبناء الجزائريين في الأعم الغالب من حق ارتياد المدارس، والعمل بكل الوسائل لإبقائهم يرزحون في براثن الأمية والجهل، حتى من وافته منهم الفرصة للالتحاق بالمدرسة لأي سبب من الأسباب، يتم الضغط عليه كي لا يتجاوز المرحلة الابتدائية، فإذا ما قاوم ذلك ووصل إلى المرحلة الثانوية، تم منعه من دخول الجامعة الوحيدة الموجودة في الجزائر في ذلك الوقت ((جامعة الجزائر)) بأي حال من الأحوال، ولم يشذ عن هذه القاعدة من الجزائريين إلا قلة قليلة ممن كانت عائلاتهم على علاقة بطريقة أو بأخرى بسلطات الاحتلال، وهو الأمر الذي دفع الجزائريين رغم الفقر والحاجة إلى توجيه أبنائهم للتعليم والدراسة في خارج الجزائر، فكانت الأقطار العربية هي وجهتهم، بحيث التحق بعضهم بالزيتونة في تونس، وبعضهم الآخر بالقرويين في المغرب، فيما فضل آخرون المشرق العربي بداية من الأزهر الشريف ودار العلوم وجامعة فؤاد الأول في مصر، وانتهاء بجامعات ومعاهد الشام والعراق.

ومع ظروف الغربة عن الأهل والوطن، والعراقيل المادية التي واجهت الكثير من هؤلاء الطلبة، إلا أن بعضهم استطاع أن يتجاوزها ويتغلب عليها، ويتفوق في دراسته، ويتحصل على أعلى الشهادات العلمية، ويتميز في تخصصه، ويتم تعيينه في نفس الجامعة التي تخرج منها، ويحجز مكانة مرموقة، ويفرض احترامه في الأوساط العلمية والفكرية والثقافية في البلد الذي هو فيه، بل ويتعداه إلى بقية الأقطار، ومن هؤلاء يبرز الدكتور أبو مدين الشافعي أحد رواد الفكر التربوي وعلم النفس في الجزائر والعالم العربي والإسلامي، إذا لم يكن أول من نال شهادة الدكتوراه في تخصص علم النفس من الجزائريين في هذا العصر، ولكنه . للأسف الشديد . لا يزال مجهولا لدى أبناء وطنه وبين قومه حتى أهل الاختصاص منهم:

. فمن هو الدكتور أبو مدين الشافعي؟

. وما هو نشاطه في كل من الجزائر ومصر؟

. وفيه تمثل إنتاجه الفكري والعلمي في تخصصه؟

. وكيف غادر الحياة بطريقة مؤلمة وهو مازال في ريعان الشباب؟

1. مولده ونشأته:

ولد أبو مدين الشافعي سنة 1921 بتلمسان⁽¹⁾، حيث حفظ جزءا من القرآن الكريم في جامع الشرفاء بمسقط رأسه على يد الشيخ سيدي الداودي، ومبادئ النحو والصرف في جامع سيدي اليدون، وبعض العلوم الدينية من فقه وتفسير وحديث في مجلس الشيخ أحمد بوعروق بمسجد سيدي الجبار⁽²⁾، التحق بالمدرسة الفرنسية بسيدي بوجمعة، ثم انتقل إلى مدرسة ديسبو بمنطقة العرعار، وواصل دراسته إلى أن وصل إلى درجة شهادة البكالوريا، التي تقدم لامتحانها في صيف سنة 1938، ولكنه وجد عراقيل في نيلها، بسبب اختياره للغة العربية كلغة أجنبية اختيارية زيادة على اللغة الفرنسية التي كانت لغة التدريس الوحيدة في المدارس الاستعمارية حينها، فتم تعمد رسوبه بسبب هذا الاختيار، بحجة أنه اختار العربية وهي لغة ميتة كما قال له مدير الثانوية الفرنسية عندما احتج عنده عن رسوبه رغم تفوقه، فحز ذلك في نفسه من

إهانته وإهانة لغته ولغة قومه، والمعاملة العنصرية الاستعمارية، فقرر الرحيل إلى المشرق العربي لمواصلة تعليمه بلغته العربية التي أقصي من الباكلوريا بسببها⁽³⁾.

كما كان أبو مدين من أوائل تلاميذ مدرسة دار الحديث بتلمسان عند افتتاحها سنة 1937، أين درس العلوم الدينية والأدبية على يد الإمام محمد البشير الإبراهيمي، الذي كان من أبرز تلاميذه وأنجبه، وقد تأثر التلميذ بأستاذه وارتبط به، وبقي وفيًا له إلى غاية وفاته حيث يصفه بأنه كان: "الأب العطوف والوجه الحكيم"⁽⁴⁾، وكما بقي وفيًا لأستاذه الإبراهيمي بقي وفيًا كذلك لدار الحديث، فكان يرسل إدارتها ومعلميها وبعض تلاميذها طيلة إقامته في مصر، حيث يذكر في إحدى رسائله التي نشرها في البصائر: "وليسمح لي قراء البصائر بإبداء ضعف بسيط فأتجه إلى مدرسة دار الحديث بتحية خاصة راجيا من رجالها اعتباري تلميذا قديما يعترف بالفضل، ويدعو بالخير، معبرا عن عطف، ومعتذرا عن تقصير"⁽⁵⁾. وقد ظل يعرض خدماته التربوية والنفسية، ويجيب عن الأسئلة الفنية والبيداغوجية التي ترد إليه من معلمي مدارس جمعية العلماء على صفحات ((البصائر)) باسم معهد علم النفس التابع لجامعة القاهرة، حيث كان يعمل أستاذا بعد تخرجه⁽⁶⁾.

2. نشاطه في مصر:

بعد حادث إقصائه من الباكلوريا في الثانوية الفرنسية بتلمسان بسبب اختياره للغة العربية، قرر أبو مدين الشافعي الرحيل إلى المشرق العربي وبالتحديد إلى مصر، لإتمام تعليمه في جامعتها، فغادر أهله وبلده في سبتمبر سنة 1938⁽⁷⁾، فانتقل في البداية إلى المغرب لقرب حدودها من تلمسان، حيث وصل إلى مدينة تطوان، وقد صادف فيها الاحتفال بتوديع البعثة المغربية المتوجهة إلى مصر بعد يوم أو يومين كي تواصل تعليمها في جامعاتها ومعاهدها، فحضر التلميذ أبو مدين الشافعي القادم من تلمسان وعمره لم يتجاوز السابعة عشر هذا الحفل، واستمع إلى الخطب التي أقيمت فيه لتوديع هؤلاء الطلبة بالمناسبة، وعندما أنهى أحد الخطباء خطبته بتحية الجزائر، ما كان من الشاب الصغير أبو مدين إلا أن صعد المنصة وخاطب الحضور قائلا: "لم تحي الجزائر؟ أتحى وهي مكبلة في اغلال العبودية؟ أتحى وهي ترسف في قيود الاضطهاد؟ أتحى... أتحى... وهي كذا وكذا؟

كلا، إنها لا تحي إلا إذا كانت لها بعثة كبعثتكم هذه، تحي إن قدر لها مصير كهذا المصير الذي ينتظر من هؤلاء الشباب، القاصدين إلى المعاهد والديار، للارتواء من المعارف، والاهتداء بنور العلم الوهاج..."⁽⁸⁾.

ومن تطوان سافر أبو مدين إلى روما بإيطاليا أين التقى بالزعيم السياسي المغربي عبد الخالق الطريس الذي كان متوجها إلى مصر للمشاركة في مؤتمر ذكرى وعد ((بلفور)) المشؤوم رفقة عدد من الزعماء العرب والمسلمين، فأصطحب معه الشاب الجزائري على متن باخرة انطلقت من أحد الموانئ الإيطالية القريبة من العاصمة روما⁽⁹⁾.

وعند وصوله إلى مصر التحق أبو مدين الشافعي بجامعة فؤاد الأول كلية الآداب قسم الفلسفة وعلم النفس، وقد ساعده انتسابه إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على قبوله الميسر في الجامعة المصرية، ووجد الكثير من السهولة والمساعدة بسبب ذلك حيث يقول: "ومن السار المطرب أني أينما ذهبت وذكرت اسم الشيخ باديس، كانت الثغور تبتسم، والوجوه تتشرح، والأذان تصغي، والأمور تقضى، وهكذا

سهل عليّ اسم الأستاذ الرئيس (ابن باديس) كل صعب، ووصلت إلى مصر بفضل انتسابي إلى جمعية العلماء، ذات السمعة العالية في الشرق العربي الإسلامي⁽¹⁰⁾.

واصل أبو مدين تعليمه بجد واجتهاد، إلى أن تحصل على شهادة الدكتوراه في علم النفس سنة 1947 برسالة علمية حول: ((التنبه الإرادي)) بملاحظة جيد جدا، والتي طبعت في كتاب بنفس العنوان بعد ذلك، ليعمل بعد تخرجه مدرسا لعلم النفس في جامعة القاهرة⁽¹¹⁾، ليكون من أوائل الجزائريين الذي ينال الدكتوراه في علم النفس إن لم يكن أولهم على الإطلاق، وليغطي تكاليف دراسته، ويتغلب على ظروف إقامته، استغل إتقانه للغة الفرنسية وأصبح . إلى جانب دراسته في الجامعة . يقوم بتعليم اللغة الفرنسية للطلبة المصريين في البيوت بمقابل مادي، مما ساعده في توفير جزء من نفقاته، ومع إتقانه للغة الفرنسية وبراعته في العربية حرص الطالب أبو مدين الشافعي على تعلم اللغة الإنجليزية التي أتقنها أيضا حتى يواكب بعض أساتذته من المصريين في تخصصه، الذين كانوا يستعملونها كالدكتور أبو العلاء عفيفي⁽¹²⁾.

وإضافة إلى تدريسه في الجامعة المصرية فتح الدكتور أبو مدين عيادة في القاهرة للعلاج النفسي، والتي تفرغ لها بعد ذلك إلى غاية مقتله على مكتبه فيها، كما كان عضوا مؤسسا للجمعية المصرية للدراسات النفسية التي تأسست في فيفري سنة 1948⁽¹³⁾.

ورغم حصوله على الجنسية المصرية سنة 1951⁽¹⁴⁾، لكنه لم ينقطع عن خدمة قضية وطنه الأم الجزائر منذ أن وضع قدميه أول مرة في مصر وإلى غاية وفاته فيها، حيث شارك في تأسيس جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية سنة 1944 والتي ترأسها الإمام محمد الخضر حسين، وتقلد سكرتاريته الأستاذ الفضيل الورتلاني، وانخرط في عضويتها عدد من الشخصيات العلمية والسياسية المغاربية (الجزائر . تونس . المغرب)، وكما ورد في إسمها وأهدافها كان لها دور مهم في الدفاع عن قضايا الأقطار الثلاثة خاصة الجزائر⁽¹⁵⁾.

وبعد اندلاع الثورة التحريرية في نوفمبر سنة 1954 كان الشافعي وثيق الصلة بأغلب أعضاء وفد جبهة التحرير الوطني في مصر، إضافة إلى احتضانه للطلبة الجزائريين في الجامعات المصرية، حيث كان كثير اللقاء بهم في بيته وعيادته، سواء لمساعدتهم في مساهمهم الدراسي، أو لتدارس موضوع الثورة وسبل دعمها، ومستقبل الجزائر، وكذا قضايا النشر والكتابة والحياة النفسية⁽¹⁶⁾.

كما كان هؤلاء الطلبة بدورهم يستدعون الدكتور أبو مدين الشافعي لمشاركتهم أنشطتهم، وليحاضر في ناديتهم، وكمثال على ذلك المحاضرة التي ألقاها في مقر النادي المغربي يوم 22 نوفمبر 1957 تحت عنوان ((الكفاح النفسي)) بدعوة ومبادرة من الطالب أبو القاسم سعد الله الذي كان يدرس في دار العلوم في ذلك الوقت، وهو الذي قدّم المحاضر إلى الحاضرين من الطلبة من مختلف بلدان المغرب العربي، وقد حضر الكثير من الجزائريين منهم العربي دماغ العتروس والشيخ عمر دردور وغيرهما⁽¹⁷⁾.

3 . إنتاجه الفكري والمعرفي:

بدأ أبو مدين الشافعي الكتابة مبكرا وهو طالب في مدرسة الحديث بتلمسان وعمره لم يتجاوز الخامسة عشر، حيث كتب أول مقال له في جريدة البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في جانفي سنة 1936⁽¹⁸⁾، ثم توالى مقالاته بعد ذلك على صفحات ((البصائر)) ومجلة ((الشهاب)) الباديسية وكذا مجلة ((العبرية)) لصاحبها عبد الوهاب بن منصور في تلمسان، وعندما استقر في مصر كتب مقالات ضافية في مجلات ((الثقافة)) و((الكاتب المصري)) و((علم النفس)) و((الشهاب)) المصرية،

وكانت أغلب مقالاته في تخصصه ((علم النفس)) كتبها في مجلة ((الأديب)) اللبنانية في الفترة الممتدة من سنة 1942 إلى غاية أواخر سنة 1957 أي قبل وفاته بشهور قليلة، وقد شملت هذه المقالات أغلب مجالات علم النفس، وهي بحاجة إلى من يجمعها ويرتبها وينشرها من أهل الاختصاص، أما مقالاته في صحف ((البصائر)) و((الشهاب)) و((العصرية)) في الجزائر فكانت في الأدب خاصة المقارن منه والتربية وقضايا الإصلاح.

ولعل الجدول التالي يوضح معظم مقالات الدكتور أبو مدين الشافعي في صحف ومجلات كل من الجزائر ومصر ولبنان:

عنوان المقال	اسم المجلة	تاريخ العدد
من شاب إلى شاب	البصائر(الجزائر)	31 جانفي 1936
بدعة المتنبّي	البصائر	19 نوفمبر 1937
التمثيل والقرآن	البصائر	21 جانفي 1938
الإيمان بالله بين روسو وفولتير	الشهاب(الجزائر)	مارس 1938
الشعر والنفس	البصائر	6 ماي 1938
الخنساء وجان دارك	البصائر	15 جويلية 1938
الأسلوب والقرآن	البصائر	16 ديسمبر 1938
الوَأد عند العرب	البصائر	26 ماي 1939
الضحك عند برغسون	الأديب(لبنان)	مارس 1942
تحضير الأرواح	الثقافة(مصر)	ديسمبر 1942
النسيان وأهميته في الحياة النفسية	الثقافة	فبراير 1943
النسيان وأهميته	الثقافة	مارس 1943
النسيان وأهميته في الحياة	الثقافة	أبريل 1943
الوصف النفسي عند أبي العلاء	الأديب	يونيو 1944
الوصف النفسي	الأديب	يوليو 1944
العقل والإيمان	الأديب	أغسطس 1944
العقل السليم عند ديكارت	الأديب	نوفمبر 1944
القوى المدركة عند ابن سينا	الأديب	ديسمبر 1944
التحليل النفسي في الأدب الحر	الأديب	فبراير 1945
الانحلال النفسي	الأديب	مارس 1945
التعبير الموسيقي وعلاج الأمراض النفسية	الأديب	يوليو 1945
الأسس النفسية للعمل الإنساني	مجلة علم النفس(مصر)	ع 2 1945
عناصر الأدب النفسي	الأديب	أبريل 1946

1946 مايو	الأديب	عناصر الأدب النفسي
1946 يونيو	الأديب	العناصر النفسية في القومية العربية
1946 يوليو	الأديب	العناصر النفسية في القومية العربية
1946 أغسطس	الأديب	العناصر النفسية في القومية العربية
1946 سبتمبر	الأديب	الحركة النفسية
1946 أكتوبر	الكاتب المصري	ظهر حديثا
1946 أكتوبر	الأديب	التعب النفسي
1946 نوفمبر	الأديب	التعب النفسي
1946 ديسمبر	الأديب	الراحة النفسية
1947 سبتمبر	الأديب	أثر الإيقاع في الصدمات النفسية
1947 أكتوبر	الأديب	حديث النفس
1947 نوفمبر	الأديب	التوازن النفسي
14 نوفمبر 1947	الشهاب (مصر)	شهاب باديس
ديسمبر 1947	الأديب	التركيب النفسي
1948 يناير	الأديب	الهبوط النفسي
1948 فبراير	الأديب	التوازن العصبي النفسي
1948 مارس	الأديب	مبادئ علم النفس العام
1948 يونيو	الأديب	علم النفس الأدبي
1948	مجلة علم النفس	الفعل الإرادي
1949 أبريل	الأديب	الوهم
1949 يوليو	الأديب	الخمول
12 ديسمبر 1949	البصائر	إلى أستاذي البشير (الإبراهيمي)
1951 فبراير	الأديب	النفاق مرض نفسي
1951 يونيو	الأديب	الفعل الإرادي
1951 نوفمبر	الأديب	تربية الجيل الجديد
1952 أغسطس	الأديب	الوحدة النفسية
1952 أكتوبر	الأديب	الوهم خوف
1953 فبراير	الأديب	آثار العاطفة
6 مارس 1953	البصائر	نفسية الطفل: أيها المعلم تجنب التوتر
20 مارس 1953	البصائر	نفسية الطفل: أيها المعلم راقب الاهتمام
1953 أبريل	الأديب	النفس والضغط
1954 فبراير	الأديب	معهد علم النفس في مصر يرد على أسئلة القراء
1954 مايو	الأديب	الشعور بالذنب

الشعور بالنقص	الأديب	يونيو 1954
شدة الحساسية لدى الطفل	الأديب	يوليو 1954
تخويف الطفل	الأديب	أغسطس 1954
ثورة الطفل	الأديب	سبتمبر 1954
الطفل العنيد	الأديب	أكتوبر 1954
الطفل السعيد	الأديب	نوفمبر 1954
الطفل الكبير	الأديب	ديسمبر 1954
الطفل المهمل	الأديب	يناير 1955
الطفل الوحيد	الأديب	فبراير 1955
حركة الطفل	الأديب	مارس 1955
الطفل الخجول	الأديب	أبريل 1955
الطفل الموهوب	الأديب	مايو 1955
الطفل والأدب	الأديب	يونيو 1955
الطفل العطوف	الأديب	يوليو 1955
الطفل والدين	الأديب	سبتمبر 1955
في سبيل الشرف	الأديب	نوفمبر 1955
وجدت نفسي	الأديب	ديسمبر 1955
حالات نفسية مستمدة من الواقع: قبل الصدمة	الأديب	يناير 1956
خلط عاطفي	الأديب	فبراير 1956
النفس والجسم	الأديب	مارس 1956
السموم والذاكرة	الأديب	يونيو 1956
التعبير والشعور	الأديب	يوليو 1956
التركيز الذهني	الأديب	أكتوبر 1956
العطف والأنانية	الأديب	أغسطس 1957
مراحل الرغبة	الأديب	أكتوبر 1957

هذا بالنسبة للمقالات، أما الكتب فقد ألّف الدكتور أبو مدين الشافعي عددا من المؤلفات في تخصصه العلمي (علم النفس) طبعت ونشرت في حياته وبعد وفاته، أصبح الكثير منها مقررًا أكاديميًا في معاهد وجامعات مصر والشام والعراق وغيرها، نذكر من هذه الكتب:

. الفعل الإرادي

. الاطمئنان النفسي

. التعب

. القلق

- . الانتباه الإرادي
- . النوم والأرق
- . نفسية الطفل
- . الحب والأمراض النفسية
- . الأعصاب والتعب النفسي
- . الراحة النفسية
- . الوهم
- . الصراع النفسي
- . التنويم المغناطيسي (19).

4. . شهادات بعض معاصريه فيه:

كان الدكتور أبو مدين الشافعي يتميز بالذكاء والتفوق والنبوغ، منذ أن كان تلميذا في الثانوية الفرنسية بتلمسان أو بدار الحديث، أو عندما انتقل إلى مصر طالبا في جامعتها أو أستاذا بها، أو ممارسا لتخصصه في عيادته الخاصة التي افتتحها في القاهرة، أو مشاركا في الحياة العلمية والأدبية، أو في مقالاته وكتبه الكثيرة التي كتبها ونشرها، وقد شهد له بذلك الكثير من معاصريه الذين عايشوه عن قرب، سواء من الجزائريين أو العرب، نذكر من هذه الشهادات في الرجل:

- الإمام محمد البشير الإبراهيمي الذي تتلمذ عليه أبو مدين الشافعي، حيث كان يؤثره وينوه به ويصفه بالتفوق، ويعتبره من أنجب طلبته من المغاربة (الجزائريين) وأقربهم إلى قلبه، كما كان يعتبر الدكتور جميل صليبا من أقرب طلبته المشاركة إليه كذلك وهو الذي درّسه من جملة من درّسهم في المدرسة السلطانية الثانوية بدمشق في نهايات العقد الثاني من القرن العشرين الميلادي (20).

. الشيخ مبارك الميلي الذي كان رئيس تحرير البصائر وأمين مال جمعية العلماء، حيث يقول عن الدكتور الشافعي: "أحد أبناء الجزائر البررة، وأعضاء الجمعية المخلصين، الشاب النجيب السيد أبو مدين الشافعي من تلامذة الأستاذ الشيخ البشير الإبراهيمي نائب رئيس جمعية العلماء ومؤسس دار الحديث بتلمسان، وقراء البصائر يعرفون هذا الشاب بفصوله الأدبية الناطقة بما له من روح ابتكار المواضيع، وولوعه بإذاعة مجد العرب" (21).

- الأستاذ محمد الإبراهيمي النجل الأكبر للشيخ محمد البشير الإبراهيمي والذي كان صديقا لأبي مدين الشافعي وزميلا له في مدرسة دار الحديث، حيث يقول عنه: "تشهد أن أخانا أبا مدين كان أذكى تلامذة قسمه في دار الحديث، وأكثرهم دؤوبا على العمل، وإنكابا على المطالعة، وتنظيما لأوقاته، دخل في سنة الباكلوريا . وفيها من التعب والرهق ما فيها . فلم يصده ذلك كله عن دروس العربية حتى صدمته تلك الظلمة التي كانت السبب في هذه المكانة التي يتبوأها اليوم أبو مدين في الأوساط العلمية في الشرق العربي" (22).

. الأستاذ محمد بن تاويت التطواني المغربي الذي كان رفيق الدكتور الشافعي في جامعة القاهرة حيث يقول عنه: "الدكتور أبو مدين الشافعي شعلة ذكاء وفطنة، وطاقية جياشة متفجرة، وانتهازية متوثبة لاقتناص الفرص، مهما كانت وفي أي نطاق بدت.. شق طريقه المستقيم وأدى امتحانه بنجاح، فنال شهادة ((الليسانس)) ثم حضر رسالة نال بها ((الماجستير))، وفي النهاية أحرز درجة ((الدكتوراه))، وكان ينال الإعجاب من الجميع..." (23).

- الأستاذ مصطفى علي المصراتي الليبي الذي احتك بالدكتور الشافعي في القاهرة ودرس عليه، يقول عنه: "ولقد حمل العالم الجزائري (أبو مدين الشافعي) نبراس علمه، وملأ به أدراج الدراسات، واكتشف جوانب، فسلط أضواء المعرفة على واحات كانت مجهولة، وأمد المكتبة العربية برسائل ودراسات علمية ذات صبغة استقرائية وروح تجريبية" (24).

- الأستاذ عبد الفتاح الديدي الكاتب المصري الذي كتب مقالا في مجلة ((الرسالة)) المصرية لصاحبها أحمد حسن الزيات حول كتاب الدكتور الشافعي ((الفعل الإرادي)) الذي أصدره سنة 1948، حيث يقول: "والكتاب الذي أعرض له الآن هو للدكتور أبو مدين الشافعي مدرس علم النفس بكلية الآداب، وهو نتيجة دراسات طويلة وتجارب كثيرة وعمل متصل في هذا الباب، ولذا استوفى الكتاب جانب العرض النظري للأفكار المتعلقة بالإرادة والأفعال الإنسانية وفكرة الجبر والاختيار، كما أنه شمل كثيرا من التجارب الدقيقة التي استفاد الدكتور من إجرائها، وإيمانه الشخصي بالعمل الذي يؤديه، والنتائج التي قال بها، غير معتمد في هذا على الأعمال التي انتهت بها مؤلفو الغرب وعلماءه، إلا من ناحية التوجيه والأسلوب فحسب...".

والذي يدل على أن الدكتور يقدم إليك مادة استوفى بحثها، واستكمل أدواتها، هو أنه تخصص في هذا الموضوع بالذات... فدراسته ليست مرتجلة، بل هي نتيجة تخصص وعناية طويلة بالموضوع... وهو لا يدرسه نظريا على الطريقة القديمة، وإنما يعمد إلى التجارب فيستمد منها الدليل على الخطوات التي يخطوها في هذا السبيل، ولذلك كان عمله متصلا بجسم الإنسان ونفسه معا، بحسبانها وحدة لا يمكن أن يدرس منها جانب على إنفراد" (25).

5) . وفاته وجنازته:

قتل الدكتور أبو مدين الشافعي يوم 25 فيفري 1958 في مقر عيادته النفسية الخاصة الواقعة في حي ((قاردين سيتي)) بالقاهرة، واختلفت الروايات في سبب مقتله وهوية القاتل، فالرواية الأولى تشير أن القاتل يهودي مصري كان مسجونا بعد أن تم تشريد اليهود من حارثهم التي كانت بباب اللوق بالقاهرة إثر العدوان الثلاثي على مصر، وكانت زوجة هذا اليهودي مريضة نفسيا يعالجها الدكتور الشافعي، والذي نصحها بضرورة الابتعاد عن زوجها لفترة زمنية محددة كإجراء علاجي، فامتثلت المرأة لنصيحة طبيبها، وسافرت إلى أهلها بباريس، فلما خرج زوجها من السجن واكتشف سبب سفر زوجته وابتعادها عنه، حمل خنجرا وتوجه إلى عيادة الدكتور أبو مدين الشافعي وقتله به وهو على مكتبه، وهي الرواية الأرجح على ما يبدو من حجم الأدلة عليها (26).

بينما تؤكد الرواية الثانية أن قاتل الدكتور الشافعي كان أحد مرضاه الذين يتابعون علاجهم النفسي عنده (27).

وقد فاجأ خبر مقتله بالطريقة البشعة التي تم بها الجزائريين المتواجدين في القاهرة حينها وصدمهم، ومعهم كل من كان يعرف الدكتور أبو مدين الشافعي عن قرب من المصريين والعرب، نظرا للخسارة العلمية الكبيرة بفقده، ولخسارة القضية الجزائرية في تلك الفترة أحد العاملين لها بإخلاص في الساحة المصرية والعربية، حيث غادر الحياة بطريقة غادرة وهو مازال في ريعان شبابه وقمة عطائه العلمي والمعرفي، ودفن في مقبرة ((القرافة)) الشهيرة بالعاصمة المصرية القاهرة يوم 26 فيفري 1958، وحضر جنازته الكثير من الجزائريين المتواجدين بمصر، من بينهم وفد قيادي من جبهة التحرير برئاسة فرحات عباس ومعه العقيد

أوعمران، كما أقامت له الجبهة عن طريق مكتبها في القاهرة في نفس اليوم سراق عزاء على عادة المصريين، حضره الكثيرون منهم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي وأحمد توفيق المدني وأحمد فرنسيس ومحمد الأمين دباغين وغيرهم⁽²⁸⁾.

خاتمة:

لقد عاش الدكتور أبو مدين الشافعي حياة حافلة بالمغامرة والطموح والإرادة من أجل العلم، وبلوغ مراتبه العالية، رغم قصرها بمقياس الزمن حيث عاش 37 سنة فقط، منذ أن وطأت قدماء المدرسة الابتدائية في تلمسان ثم الثانوية الفرنسية، أين تم إقصاؤه بسبب حبه للغة العربية واختياره لها في امتحان البكالوريا سنة 1938، فكانت هذه المظلمة الاستعمارية من أكبر الحوافز التي دفعت الشاب الصغير الذي لم يتجاوز عمره السابعة عشر، أن يقرر الرحيل إلى المشرق العربي وإلى مصر تحديداً، لإتمام دراسته، وإشباع شغفه المعرفي، وهي التي كانت جامعاتها ومعاهدها حينها إضافة إلى الأزهر الشريف قبلة للطلاب العرب والمسلمين، فأستطاع أن يتحدى كل العراقيل والظروف الصعبة التي واجهته، ويحقق أمنيته في رحلة طويلة قادته من الجزائر إلى مصر، مروراً بالمغرب وإيطاليا، ويثابر في طلب العلم حتى ينال أعلى الشهادات الجامعية بنفوق، ليصبح من أوائل الجزائريين الذين يتحصلون على شهادة الدكتوراه في علم النفس سنة 1947، ويدرس في الجامعة المصرية، ثم يفتح عيادته الخاصة للعلاج النفسي، ليفرض نفسه مبكراً في الأوساط العلمية في مصر والعالم العربي، خاصة في تخصصه ((علم النفس))، من خلال مقالاته الكثيرة وكتبه ونشاطاته المختلفة، دون أن ينسى في زحمة كل ذلك قضية وطنه الجزائر، حيث ساهم في احتضان وتوجيه الطلبة الجزائريين الذين توافدوا على الجامعات والمعاهد المصرية في تلك الفترة، كما شارك في معظم المبادرات والفعاليات المتعلقة بالتعريف بالقضية الجزائرية في الساحة المصرية وسبل دعمها، منذ وصوله إلى القاهرة سنة 1938 إلى غاية مقتله سنة 1958، وهو الأمر الذي جعله محل تقدير واحترام الجميع، ولعل خير دليل على ذلك هو حضور جنازته وتأيينته من طرف كل الطيف السياسي والفكري الجزائري المتواجد في القاهرة، وتعبير هؤلاء عن حزنهم وصدمتهم بخبر مقتله في عيادته، وخسارة الجزائر لأحد أبنائها البررة، العاملين لقضيتها وثورتها، والحائزين على مكانة علمية وأكاديمية محترمة في الجامعات المصرية والعربية.

وفي الأخير لا يسعنا إلا أن نؤكد أن عالم النفس الجزائري الدكتور أبو مدين الشافعي مع كل الزخم الفكري والأدبي، والإنتاج العلمي والمعرفي، والنشاط العملي والمهني، والمكانة التي نالها مصريا وعربيا في مجال تخصصه، ونضاله وتقانيه في خدمة وطنه رغم غربته، لا يزال مجهولا عند الكثير من أبناء بلده، بعد أكثر من خمسين سنة من الإستقلال، ولم يحظ بالاهتمام الذي يليق بمكانته، ولم يجد العناية التي تتناسب وقيمتة وعلمه وإنتاجه وريادته في مجال تخصصه، كأول علماء النفس الجزائريين في العصر الحديث، وهو الأمر الذي يستدعي إعادة الاعتبار له، والتعريف به خاصة لطلبة علم النفس في الجامعات الجزائرية، والمبادرة إلى جمع مقالاته الكثيرة في المجلات العربية وتنظيمها ونشرها، وطبع كتبه العديدة على هيئة ((الأعمال الكاملة))، وترسيمها في مقررات علم النفس لتكون متاحة للباحثين والطلبة، وإقامة الملتقيات والندوات والأيام الدراسية المتخصصة لدراسة حياته وسيرته وإسهاماته العلمية، وكذا إطلاق اسمه كرائد لعلم النفس في الجزائر على أحد المعاهد والجامعات الوطنية، تخليداً لذكراه كأحد الأسماء العلمية والأكاديمية

التي تفخر به بلده، وتعرف له فضله وحقه عليها، بعد أن شرفها في المحافل العلمية العربية، ورفع إسمها، وخدم قضيتها في الأوقات الصعبة، لما كانت تترج تحت نير الاحتلال الغاصب.

الهوامش:

1. خير الدين الزركلي(2002):الأعلام، ط 15، بيروت، دار العلم للملايين، ج 7، ص 198.
2. مولود عويمر(16 . 22 ديسمبر 2013):"الدكتور أبو مدين الشافعي عالم النفس الجزائري المغمور"، جريدة البصائر، ع 683، ص 16.
3. البصائر، ع 218، السنة الخامسة من السلسلة الثانية، 20 فيفري 1953، ص 5.
4. البصائر، ع 98، السنة الثالثة من السلسلة الثانية، 12 ديسمبر 1949، ص 5.
5. المصدر نفسه.
6. البصائر، ع 216، السنة الخامسة من السلسلة الثانية، 6 فيفري 1953، ص 7.
7. البصائر، ع 218، مصدر سبق ذكره.
8. محمد حجي وآخرون(2002):معلمة المغرب، من إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، المغرب، مطبعة سلا، ج 15، ص 5242.
9. المصدر نفسه، ص 5243.
10. البصائر، ع 138، السنة الثالثة من السلسلة الأولى، 4 نوفمبر 1938، ص 1.
11. البصائر، ع 5، السنة الأولى من السلسلة الثانية، 5 سبتمبر 1947، ص 3.
12. محمد حجي وآخرون(2002):مصدر سبق ذكره، ص 5243.
13. الزركلي(2002):مرجع سبق ذكره.
14. عمر رضا كحالة(1993):معجم المؤلفين تراجم مصنفين الكتب العربية، بيروت، مؤسسة الرسالة، ج 3، ص 839.
15. الفضيل الورتلاني(2007):الجزائر الثائرة، ط 4، عين مليلة، دار الهدى، ص 271.
16. أبو القاسم سعد الله(2005):مسار قلم، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ج 2، ص 298.
17. المصدر نفسه، ص 253.
18. البصائر، ع 5، السنة الأولى من السلسلة الأولى، 31 جانفي 1936، ص 3.
19. عمر رضا كحالة(1993):مصدر سبق ذكره.
20. البصائر، ع 5، السنة الأولى من السلسلة الثانية، مصدر سبق ذكره، ص 3.
21. البصائر، السنة الثالثة من السلسلة الأولى، ع 138، مصدر سبق ذكره، ص 1.
22. البصائر، السنة الأولى من السلسلة الثانية، ع 5، مصدر سبق ذكره، ص 3.
23. محمد حجي وآخرون(2002):مصدر سبق ذكره، ص 5242 . 5243.

24. مولود عويمر (16 . 22 ديسمبر 2013): مرجع سبق ذكره.
25. مجلة الرسالة، ع 777، 24 ماي 1948، ص 56.
26. محمد حجي وآخرون (2002): مصدر سبق ذكره، ص 5243.
27. مولود عويمر (16 . 22 ديسمبر 2013): مرجع سبق ذكره.
28. أبو القاسم سعد الله (2005): مصدر سبق ذكره، ص ص 322 . 323.